Journal of letters and Social Sciences (JLSS) مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/4

نقد الأخلاق في الفكر العربي المعاصر محمد عابد الجابري أنموذجا

Moral criticism in arab contemporary thought by el-jabri

أ.د. موسى بن سماعين
Pr. Moussa Bensmaine
جامعة باتنة1، الجزائر
moussa.bensmaine@univ-batna.dz

معلومات حول المقال
تاريخ الاستلام 13-12-2023
تاريخ القبول 06-02-2025

الكلمات المفتاحية
فكر عربي
الأخلاق
نقد

ملخص

لم تحظ المسألة الأخلاقية في الفكر العربي بالأهمية المطلوبة، قياسا بالسياسة مثلا، لذا أفرد محمد عابد الجابري جزءا هاما من مشروعه النقدي للأخلاق، تحت مسمى العقل العملي، من خلال كتابه العقل الأخلاقي العربي، الذي انشغلنا فيه بالإجابة على السؤال ما هو مفهوم النقد الذي أراده الجابري للأخلاق؟ ما هي الآثار التي ترتبت على هذا التوجه؟ وما هي قيمته؟

يحاول هذا العمل الإجابة على هذه الأسئلة، بهدف معرفة واقع البحث القيمي في الفكر العربي المعاصر، ومدى قدرته على التصدي للمشكلات الراهنة من الناحية الأخلاقية.

مقدمة

كان الربع الأخير من القرن العشرين، مرحلة هامة في تاريخ الفكر العربي المعاصر، وتحديدا بعد هزيمة جوان 1967، التي تعرف بالنكسة، أين واجه الوعي العربي ذاته، فاكتشف وهنه، وضعفه، وتخلفه، متجليا في الهزيمة العسكرية، أمام العدو الإسرائيلي، وبدا معه حجم الاهتراء في النظم السياسية العربية، وإفلاسها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، فلم تف بما وعدت به من تنمية اجتماعية، وتقدم اقتصادي، وانتصار عسكري، فكانت إعادة النظر في هذا الوضع البائس ضرورة ملحة، أفرزت مشاريع نقدية هامة، لعل من أهمها المشروع النقدي لمحمد عابد الجابري، (1935-2010) الذي ظهر مطلع الثمانينات من القرن الماضي، ودام ما يزيد عن العشرين سنة.

يتألف المشروع من أربعة أجزاء، أخذت عنوانا لها نقد العقل العربي، كان بكورته الأولى «تكوين العقل العربي 1982»، ثم تلاه كتاب « بنية العقل العربي 1986»، ثم الجزء الثالث الذي حمل عنوان «العقل السياسي العربي 1990» وأخيرا كتاب «العقل الأخلاقي العربي2001».

تشكل هذه الأجزاء الأربعة عملا متكاملا، ينظر في العقل العربي من الناحية المعرفية النظرية، متابعا تكوينه وبنيته، ومن الناحية العملية، سياسيا نظر في المحددات والتجليات، وأخلاقيا كشف نظم القيم في الثقافة العربية الإسلامية.

إن الوقوف عند مشروع الجابري ووصفه بالهام، لا يعني الانحياز إليه أو الوقوف ضده، بل لما أثاره من ردود فعل، تمثل حقا هزة وخلخلة للعقل العربي، فهو مشروع أخذ من النقد عنوانا له، وهو يزعم استئناف القول الفلسفي، الذي ركد أو تلاشى، بوصفه الشرط الضروري للإقلاع الحضاري، وتجاوزا للفوات الذي وجد نفسه فيه.

كان حظ المشروع من النقد قويا، خاصة في شقه النظري الإبستمولوجي[1]، وهذا ما يؤكد أهميته، إلا أن الشق العملي لم يحظ بنفس الاهتمام، خاصة نقد العقل الأخلاقي، الذي لم يطبع إلا سنة 2001، لذا سننظر في هذا النقد الذي سلطه الجابري على العقل الأخلاقي العربي متسائلين بأي معنى استخدم الجابري النقد؟ ما هي المقدمات التي استند إليها؟ هل كان نقدا موضوعيا استهدف الحقيقة؟ أم كان سجاليا جانب الحقيقة؟ وبصيغة برغماتية هل ترتب على هذا النقد حراكا في العقل العربي أم كان جعجعة لم نر لها طحينا بعد؟

1- يمكن أن نورد في هذا السياق المشروع المضاد الذي أعلنه وباشره جورج طرابيشي تحت عنوان نقد النقد.

1–في مفهوم النقد

1–1– في اللغة

تأخذ كلمة النقد في اللغة العربية معان كثيرة، يعنينا منها ما ورد في لسان العرب تحت مادة نقد« ناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر» (ابن منظور، 2009) و«نقد الرجل الشيء بنظره ينقده نقدا ونقد إليه، اختلس النظر نحوه، ومازال فلان ينقد بصره إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه» (المرجع نفسه, ص426) وفي حديث لأبي الدرداء أنه قال: « إذا انقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك، معنى نقدتهم أي عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله » (المرجع نفسه, الصفحة نفسها) ويكاد يرد نفس الضبط في القاموس المحيط من ذلك أن النّقد هو «اختلاس النظر نحو الشيء» (الفيرز أبادي، 2007)

ويفهم من التحليل اللغوي, أن النقد نظر وإمعان في النظر, بغرض معرفة ما في الشيء من حسن وما فيه من عيب, ومثل ما يصدق ذلك على النظر الحسي يصدق ذلك على النظر العقلي, لذا فالنظر عند حكماء العرب، إعمال للعقل، أكثر ما هو رؤية بالبصر.

أما في اللغة الأجنبية فإن كلمة Critique الفرنسية ذات الأصل اللاتيني Critucus أو اليوناني Kritikus فتعني حاكم Juger يتعدد معناها بتعدد مجالات استخدامها فهي تدل على الوضع الحرج Une sutuation critique وهي تدل في المجال الفكري على «فحص قوى العقل في تأسيس شروط المعرفة» (Le petit larousse , 2001)

إذا قارنا بين التحليل في اللغتين العربية والأجنبية - رغم الفارق الزمني بين القاموسين- نجد أن النقد في اللغة العربية يغلب عليه الطابع الحسي، نقد فلان فلانا أي نظر إليه نظرة فاحصة، بينما النقد في اللغة الأجنبية، من طبيعة مجردة، وأيا ما كان الاختلاف، فهو في اللغتين فحص ونظر وهي حدود مرادفة للنقد تقع في مقابل القبول المباشر العفوي الخالي من أي فحص ونظر .

1–2–في الاصطلاح

إذا عدنا إلى معاجم الاصطلاح وجدنا تباينا، في المعنى، غير أننا نقف على معنى عام يوجزه لالاند في معجمه بأنه يرتبط بالعقل أو الفكر فيقال فكر نقدي وعقل نقدي، ومن ثمة فهو «الذي لا يسلم بأي تقرير دون التساؤل عن قيمة تقرير، سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي) أو من حيث مصدره (نقد خارجي)» (الاند، 2001) وبهذا المعنى يكون النقد نظر، وإعادة نظر، فهو فحص يأبى القبول المباشر، هذا المعنى ملائم تماما للروح الفلسفية، فحيثما كان الفكر فلسفيا كان النقد ملازما له.

لم يكن الفكر العربي المعاصر بعيدا غن هذا التصور، إذ يتعدد معنى مصطلح النقد بتعدد موضوعاته، وتعدد شروطه وغاياته، يقول حسن حنفي : «الحقيقة أن النقد تيار يظهر في كل الحضارات وليس وفقا على الحضارة الغربية وحدها» (حسن حنفي، 2005)

لما كان النقد فعلا حضاريا، فهو يتلون بلون الحضارة، ولون الموضوع الذي ينصب عليه، فالنقد قد يتوجه إلى الدين بعقائده وشعائره ونصوصه، و قد يتوجه إلى الفكر بمذاهيه ومناهجه، و قد يتوجه إلى الواقع بظواهره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما يظهر التلون والاختلاف في منطلقات النقد وآلياته وأدواته و شروطه ونتائجه.

إن النقد لا يختلف من حضارة إلى أخرى فحسب، ولا من موضوع إلى آخر، بل حتى في المرحلة الواحدة، من تطور الحضارة، وفي الموضوع الواحد، بدليل أننا إذا نظرنا إلى النقد في الفكر العربي المعاصر، وجدناه متأثرا بمذهب صاحبه وتوجهه فهذا حسن حنفي يعتقد أن النّقد الحقيقي ثلاثي الأبعاد:

الأول نقد الموروث التاريخي «إعادة بناء علوم في مرحلة تاريخية جديدة » (المرجع نفسه، الصفحة نفسها) و من خلاله نحدد موقفنا من التراث، ونحدد علاقتنا به.

الثاني نقد الوافد الجديد بمعنى «تحويل علاقتنا به من مصدر للعلم كي يصبح موضوعا للعلم» (المرجع نفسه، الصفحة نفسها) ومن خلاله يتحول الوعي العربي إلى الفاعلية بدل الانفعالية التي يمارسها العقل العربي إزاء التراث الغربي.

الثالث نقد الواقع المباشر بمعنى «نقد الاحتلال والتسلط والفقر والتجزئة والتبعية والتعريب واللامبالاة وعجز الشعوب» (المرجع نفسه، الصفحة نفسها) ومن خلاله يمكن تغيير الواقع نحو الأفضل .

إذا قسنا هذا الفهم للنقد بما يريده الجابري. وهو موضوع الدراسة. اتضح الفرق والاختلاف، فالنقد عند الجابري هو استئناف للنظر في تكوين العقل وفي بنيته وتمظهراته « إن عملية النقد المطلوبة أو على الأقل كما نريدها أن تكون، تتطلب التحرر من أسار القراءات السائدة واستئناف النظر في معطيات الثقافة العربية الاسلامية بمختلف فروعها دون

التقيد بوجهات النظر السائدة»(محمد عابد الجابري، 2006)

هاهنا ينبثق النقد الجابري من توجه بنيوي، سيكون بموجبه نظر وتأمل وفحص لموضوعه من الناحية الابستمولوجية المعرفية، أي النظر إلى العقل المكون [بالفتح] وليس المكون بالكسر«إن ما نقصده بالعقل العربي هو العقل المكون بالفتح، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة» (المصدر نفسه الصفحة 15)

خلافا لنقد حسن حنفي المنبثق من رؤية فينومينولوجية، تنظر إلى الأنا في علاقتها مع الجهات الثلاث التراث القديم، والتراث الحديث الغربي، والواقع المباشر (حسن حنفي، 2006)

إذا فرق بين نقد ينطلق من الذات ونقد يقصي الذات، ثم أن نقد الجابري لم يقف عند حدود العقل النظري أي من ناحية التكوين والبنية، بل امتد إلى العقل العملي من الناحية السياسية والأخلاقية، سوف نرى كيف أن الاهتمام بالجانب الأخلاقي يقع في سياق الطرح البنيوي.

2-نقد الأخلاق كمنظومة قيمية

يستند نقد الجابري إلى جملة من المقدمات توضح حاجته إلى النقد ومنهج هذا النقد وموضوعه وصيرورته والنتائج التي يؤدي إليها .

2-1-وجه الحاجة إلى نقد أخلاقي

يعاني الفكر العربي الفقر والفاقة في التأليف الأخلاقي، فالمكتبة العربية «خالية من أية محاولة جادة وشاملة تحليلية ونقدية لنظم القيم في الثقافة العربية الإسلامية، بل إنها تخلو كذلك من مؤلفات في تاريخ الفكر الأخلاقي العربي» (محمد عابد الجابري، 2006)

إن فقر المكتبة العربية من مدونات وكتب وبحوث في النقد الأخلاقي، لا يتعلق بالفكر العربي المعاصر فحسب، بل أن تاريخ الفكر العربي من الجاهلية إلى العصور الإسلامية المزدهرة أو المنحطة، إلى عصر النهضة، تفتقر إلى أثر الطرافة والجدة في ميدان الأخلاق، وما وجد من تأليف لا يرقى إلى مستوى النقد، فهو يعاني واحدة من الاثنين أو هما معا:

-البحث في الأخلاق قائم على التقليد أي صادر عن نموذج للكتابة في الأخلاق ينتمي إلى ثقافة أخرى لها نظام قيم يختلف عن نظام قيم الثقافة العربية الإسلامية، ويقصد بذلك المقلدون للحداثة الغربية، الذين يبحثون في التراث العربي عن قيم هي من إنتاج الثقافة الغربية.

-الميل إلى السهل الجاهز في التأليف، ومعناه غياب البحث العميق الجاد، كالإقرار أن الأخلاق في الفكر العربي مستوحاة من الدين أو ذات طبيعة دينية، خالية من التأمل الفلسفي. معاناة البحث في الأخلاق أنتجت فقرا أو انعداما للتأمل الأخلاقي، وهو ما سيكون مبررا للجابري أن يخوض غمار بحث في الأخلاق قوامه النقد الجاد .

2-2-الرؤية والمنهج

حدد الجابري المنهج الذي سيسلكه في نقده للعقل الأخلاقي العربي، وصرح بأنه « نفس المنهج الذي اتبعناه في الأجزاء السابقة (...) التحليل التاريخي، والمعالجة البنيوية، والطرح الإيديولوجي.» (المصدر نفسه ص 3)

تتلخص المعالجة البنيوية في «معالجة صاحب النص ككل تتحكم فيه ثوابت ويغتني بالتحولات التي يجريها عليها حول محور واحد» (محمد عابد الجابري، 1993) وكأن الجابري يقول لا يعنيني من النص التراثي الذات ولا الأجزاء بل يعنيني النص كظاهرة كلية. أما التحليل التاريخي فيربط، فكر صاحب النص بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية و الأيديولوجية والسياسية (المصدر نفسه، الصفحة نفسها)، في حين أن الطرح الأيديولوجي فيعني «الكشف عن الوظيفة الأيديويوجية (الاجتماعية والسياسية) التي أداها الفكر المعني، أو كان يطمح أو يراد منه أن يؤديها» (المرجع نفسه، الصفحة نفسها)

تحقيق هذا المنهج يفترض التعامل مع القيم ضمن أنظمة تمثلها الموروثات الثقافية الآتي الحديث عنها، وكل نظام يدور حول قيمة مركزية من منطلق أول أن العقل الأخلاقي العربي ليس عقلا فرديا وإنّما عقل جماعي يوجه سلوك الجماعة، ومنطلق ثان أن كل نظام من القيم سيحقق نتائج سياسية، من باب أن السياسة هي تدبير الجماعة.

من مقولات المنهج الجابري مقولة أساسية أهمها الموروث الثقافي، للدلالة على فكرة الكلية.

3-الموروث القيمي العربي الإسلامي متعدد في وحدته

إذا كان الموروث القيمي مقولة أساسية في الرؤية الجابرية، فإن هذا الموروث متعدد رغم الوحدة التي يظهر بها، «إن عالم القيم في الثقافة العربية في الحقيقة عوالم، وليس عالما واحدا، لأن الثقافة العربية لم تكن في الحقيقة ثقافة بالمفرد،

بل كانت بالجمع» (محمد عابد الجابري: مصدر سابق، ص21)

يظهر هذا التعدد في خمسة موروثات هي:

3-1-الموروث الفارسي

ينطوي التراث العربي الإسلامي على تأثير بالغ للفرس، جسده بصورة واضحة خطاب الترسل[1]، وأشهر أعلامه عبد الحميد الكاتب[2]. تعود أصول أدب الترسل إلى الفرس «وإذن فلا بد من القول أن هذه النصوص[يقصد الرسائل] هي من أوائل ما انتقل إلى الثقافة العربية من الموروث الفارسي في ميدان السياسة والأخلاق.»(محمد عابد الجابري: مصدر سابق، ص144) إنّ القيمة المركزية التي يدور حولها أدب الترسل، ومن خلاله الموروث الفارسي هي الطاعة والخضوع، ولا يخفى ما لمقولة الطاعة من تأثير سياسي يشير إلى غياب الحرية، وهي القيمة التي دأب الخلفاء والسلاطين والملوك والرؤساء على توطيدها.

إن كنّا لا نشك لحظة في تأثير التراث الفارسي في الثقافة العربية الإسلامية، لكن ما يثير الريبة هو التأكيد على أن القيمة المركزية له هي الطاعة، ذلك أن بعض آداب الفرس فيها حث على الثورة ضد الجور والظلم، خاصة ما كان يرد على لسان الحيوان في كليلة ودمنة لابن المقفع وهو ما سماه المفكر محمود إسماعيل في كتابه سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، بنثر قوى المعارضة التي تمثل في «أدب رمزي ذو طابع حكائي، ظاهره قصص وباطنه حكم غايتها كشف وتعرية الأوضاع السياسية والفكريّة والدينيّة والمذهبيّة» (محمود إسماعيل، 2000)

3-2-الموروث اليوناني

انتقل الموروث اليوناني إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال حركة النقل والترجمة، ولعل أكبر تأثير لهذا الموروث، هو حضور أفلاطون وأرسطو، وأضاف الجابري حضور جالينوس، «ذلك الحضور الذي أبرزناه ليس فقط بوصفه جسرا أو وسيطا بين كثير من المؤلفين العرب في الأخلاق وبين كل من أفلاطون وأرسطو»(محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي، مصدر سابق، ص421) إن القيمة المركزية للموروث اليوناني، هي أخلاق السعادة، تلك التي جسدها الفلاسفة المسلمون.

لكن الجابري ميز بين نوعين من الاقتباس، اقتباس ايجابي مثلته النزعة التوفيقية، مثل ما هو الحال عند الفارابي الذي جمع بين أفلاطون وأرسطو فاستمد أخلاق السعادة من أرسطو والأخلاق السياسية من أفلاطون ولعل ايجابية هذه النزعة متأتية من كون الفارابي على وعي بوجود قاسم مشترك من الحقيقة بينها جميعا، وهو ما ألح عليه وأفاد منه في صياغة منظومته الفلسفية. أما الاقتباس الرديء وهو الأكثر هيمنة فمثّلته النزعة التلفيقية والتي ينتمي إليها كتاب « السعادة والإسعاد» للعامري[3] وكتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه[4]، يفاجئ المرء بالخانة التي وضع فيها الجابري كل من مسكويه والعامري رغم الشأن العظيم الذي يذكره الدارسون لهما، (راجع الهامش)

إن وضع مسكويه في خانة الملفقين بدعوى أنه أخذ من هذا ونقل عن ذاك من أرسطو مرة ومن أفلاطون مرة أخرى لا يصدق على مسكويه فقط بل يصدق على كل الفلاسفة المسلمين وأولهم أبو نصر الفارابي، إننا نشتم رائحة طرح إيديولوجي يجانب الحقيقة، مبعثه التقسيم القسري للفكر العربي، مشرقي ومغربي، الأول عرفاني غنوصي تلفيقي، والثاني برهاني إبداعي.

1-كان العرب يستعملون فعل (ترسّل) استعمالا عاما في كلامهم بمعنى: تمهل وتأنى وترفق واسترخى، ومصدره (ترسّل)، غير أن أول إشارة صريحة إلى المعنى الاصطلاحي وردت في كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب (من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد) إذ يقول : أنا مترسل ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرّر فعله في الرسائل، ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة) مُرسل (الاسم) الرّسالة. ومعنى الترسل إذن هو إكثار من كتابة الرسائل، ولذلك كانت كلمة مترسّل تطلق أكثر ما تطلق على كُتّاب دواوين الرسائل المتفرغين فيها لكتابة رسائل الخلفاء أو الولاة، والحقيقة أن هذا الفن ازدهر بعد الاسلام ازدهارا عظيما على يد هؤلاء الكُتّاب راجع:

http//:www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopediafunc=display_termid15752=

2- عبد الحميد الكاتب الأستاذ الأول للكتابة الفنية عند العرب عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري نشأ في الأنبار واحترف التعليم في الكوفة واتصل لخلفاء بني أمية، وعظمت منزلته عند الخليفة مروان بن محمد حتى صار كاتبا وصديقا له وكان من أشهر الكتاب في أواخر عصر الدولة الأموية وتوفي سنة 132 هجرية. هرب مع مروان بن محمد إلى مصر حيث قتلهما العباسيون في أبو أصير بصعيد مصر.

3-هو أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسبوري، من كبار الفلاسفة في القرن الرابع عشر (العاشر الميلادي) ولد بمدينة نيسابور في مطلع القرن الرابع للهجري على الأرجح، وضعه الشهرستاني في مصاف كبار الفلاسفة أمثال الكندي، الفارابي وابن سينا. توفي –رحمه الله- بنيسابور يوم 27 شوال 381 هجري (06 يناير 992)

4- مسكويه هو أب علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه (932-1030) هو فيلسوف ومؤرخ وشاعر فارسي. لمع نجمه في الفلسفة حتى لقبه البعض بالمعلم الثالث، يعتبر مسكويه أول عالم مسلم بارز درس الأخلاق الفلسفية من وجهة نظر علمية وذلك في كتابه تهذيب الأخلاق والذي ركز فيه على الأخلاق والمعاملات وتنقية شخصية الإنسان يقول ماجد فخري في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية:» ترك لنا في باب الأخلاق كتابا منظما فل نظيره في العربية، هو كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق».

3-3-الموروث الصوفي

ينتمي التصوف[1] من الناحية الإبستيمولوجية، إلى العقل المستقيل الذي يمثله العرفان عند الجابري، أما من الناحية العملية الأخلاقية فهو منتج لقيم الفناء «والجانب العملي في التصوف قوامه الزهد والإعراض عن الدنيا، فهو من هذه الناحية موقف سلبي من الحياة» (محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي، مصدر سابق، ص429)، أي أن القيمة المركزية في هذا الموروث هي الفناء.

فكيف مصطلح الفناء صوفي بالأساس، ولكن الجابري أخرجه عنوة عن محتواه، وبغض النظر عن المبررات التي جعلت هذا الموروث يظهر وينتعش في الثقافة العربية الإسلامية، إلا أن جل التحليلات تتفق على أن التصوف يمثل موقفا من الممارسة السياسية الاستبدادية فهو «من حيث الواقع والجوهر نمط حاد من أنماط رد الفعل لمجمل الأحداث الخطيرة الدامية والصراعات السياسية المتلاحقة ...»(حسين مروة، 1985) فكيف يكون التصوف برمته فناء وإفناء للأخلاق.

إن التصوف في نظر الجابري وافد ووظف ضد الدولة العربية، دولة بني أمية، وما كان التصوف وافدا بصورة كلية، بل تغذى من روح الإسلام، إذ يترجم روح التدين.

3-4-الموروث العربي الخالص

يعرف الجابري من الأدب نثره وشعره في سبيل الكشف عن هذا الموروث، الذي لم يقف عند أدب اللسان، بل امتد إلى أدب النفس، مستلهما الأمثال والحكم، مكتشفا القيمة المركزية لهذا الموروث ممثلة في المروءة «وهي التي نتخذها قيمة مركزية في الموروث العربي الخالص.» (محمد عابد الجابري: مصدر سابق، ص532)

تضرب أخلاق المروءة بجذورها في تاريخ العرب إلى ما قبل الإسلام، وعززها الإسلام ودافع عنها، ولعل المقصود بالحديث الشريف «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» تعني الأخلاق الكريمة التي سادت قبل الإسلام، وهذه القيم لا تخرج عن الشهامة والهمة والترفع عن الدنايا، وصاحب المروءة كريم جواد

يعتقد محمد عابد الجابري أننا في حاجة إلى بعث قيم هذا الموروث إذ يوضح ذلك قائلا: «لعل من خير ما يقدم للأمة العربية اليوم هو بعض صفحات مشرقة مجيدة من تاريخها العظيم تفيض بالخير والسخاء والرحمة والعدل والشجاعة والرفق والبطولة والوفاء.» (المصدر نفسه، ص532)

3-5-الموروث الإسلامي

حتى لا يقع الخلط ميّز الجابري بين الثقافة العربية الإسلامية التي تشمل كل الموروثات الآنفة الذكر، وبين الموروث الإسلامي الخالص الذي يتمثل في القيم التي جاء بها الدين الإسلامي من خلال القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلّم «ليس ثمة شك في أن الإسلام يحمل معه منذ ظهوره، نظاما للقيم خاصّا به.» (المصدر نفسه، ص535) وأحسن تأليف يترجم هذا الموروث الإسلامي الخالص هو ما يصطلح على تسميته الآداب الشرعية التي تختلف ضمنيّا عن الفقه وعلم أصول الفقه، ومضمونها الطريقة المثلى والفضلى في أداء ما هو واجب أو مندوب إليه كان مثل أدب الصلاة وأدب الزكاة وأدب الزيارة ...

على أن الآداب الشرعية لم تبقى حكرا على الفقهاء، بل ألّف فيها المتصوفة والمتكلمون، هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم فقهاء الباطن في مقابل الفقهاء الذين هم فقهاء الظاهر، والقيمة المركزية التي يدور حولها هذا الموروث هي أخلاق الآخرة، مستندا إلى أعمال الحارث بن أسد المحاسبي[2] الذي وضع ما سمي بعلم أخلاق الدّين وهو علم أحكام الآخرة وهو العلم الباطن وتبعه بشكل ما الماوردي[3] في كتابه أدب الدنيا والدين ومن الحاضرين أيضا في الأخلاق الإسلامية، أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين.

4-أخلاق المروءة والعمل الصالح

ينتهي الجابري من عرضه للموروثات التي وجهت القيم في الثقافة العربية الإسلامية، مركزا على حضور الموروث

1-« التصوف الموافقة للحق» عند الصوفية، وقيل: « إنّما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها»، وفي اشتقاق التصوف أقوال إذ حاصله اتصاف بالمحامد، وترك للأوصاف المذمومة، وقيل من الصفاء وهو التخلق بالأخلاق الإلهية، وخرقة التصوف هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده... راجع محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم رفيق لبجم، الجزء 01، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 1996 ص456

2- الإمام الحارث المحاسبي هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، ولد في البصرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، كان ذا ثقافة واسعة وعلم جم، فقد كان فقيها محدثا متكلما واعظا. خلف مؤلفات كثيرة، معظمها في السلوك والزهد والتربية والوثائق، وكثير منها في أصول الدين والرد على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم، عُني عناية خاصة بأمور تزكية النفس وطهارتها حتى ليكاد هذا الجانب يستأثر باهتماماته كلها. وقد بلغ شوطا بعيدا في الدخول إلى أعماق النفس الإنسانية وتحليلها، والوقوف على خباياها وخفاياها، يشخص أمراضها بدقة متناهية، ويصف لها العلاج، وهو إنما عرف بالمحاسبي، لكثرة محاسبته بنفسه.

3- الماوردي هو أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (نسبة إلى ماء الورد الذي اشتغل به) ولد بالبصرة سنة 374هـ وتوفي سنة 450 هـ ببغداد

الفارسي، الذي دار على قيمة مركزية، ممثلة في الطاعة، مكرسة الاستبداد، والموروث اليوناني، الذي دار على قيمة مركزية هي السعادة، غير أن سيطرة النزعة التلفيقية ألحقته بالموروث الفارسي، بينما قام التصوف على قيمة الفناء، فأدى ذلك إلى إفناء الأخلاق، إن حضور هذه القيم يدل على وضع متأزم قوامه الصراع، وعدم الاستقرار.

القيمتان الحقيقيتان الغائبتان أو المغيبتان، اللذان ينبغي إحياؤهما هما قيمة المروءة وقيمة العمل الصالح، الأولى مستوحاة من التراث العربي الخالص، والثانية مستمدة من الدين الإسلامي، لا يمكن للمرء إلا أن يلاحظ بأسف شديد أن التراث العربي الإسلامي، يخلو أو يكاد يخلو من دراسات ومؤلفات في أخلاق المروءة وأخلاق العمل الصالح التي هي بحق الأخلاق العربية الإسلامية.» (محمد عابد الجابري: مصدر سابق، ص595)

إذا عدنا إلى تراثنا أمكننا أن نجد في بعض المؤلفات المنسية ما يسد الخلة، من ذلك مؤلفات العز بن عبد السلام[1] السلمي الشافعي، المغربي الأصلي، من آثاره المؤسسة لأخلاق العمل الصالح –بوصفها الأخلاق الإسلامية الحقة- القواعد الكبرى والقواعد الصغرى وشجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال.

إن اهتمام العز بأخلاق المصلحة، يكون بذلك قد «أسس لمدرسة المقاصد الإسلامية» (محمد عابد الجابري: مصدر سابق، ص595) التي ظهرت مع الشاطبي، والظاهر أن الجابري يأنس للعز يعتقد أنه الممثل الحقيقي للأخلاق الإسلامية لأنه ينظر إلى أفعال المسلم كلها من زاوية المصالح والمفاسد، سواء كانت تخص الدنيا وحدها أو الآخرة وحدها أو تخصهما معا، وهو ينظر إليها كلها من زاوية أداء الحقوق، (حقوق الله وحقوق الإنسان لنفسه ولغيره وحقوق الحيوان) وأعلى القيم في سلم جلب المصالح ودرء المفاسد هي الإحسان، إذ الإحسان هو فعل كل مباح أو مندوب إليه أو مأمور به على الوجه الأحسن والأفضل.

هكذا ينفي الجابري صفة التصوف والزهد عن العز، لأنه يرغب ويريد أن يستعبد الموروث الفارسي والصوفي وبدرجة أقل الموروث اليوناني فالأول يروج لقيم كسروية والثاني غريب تلفيقي والثالث أفنائي.

يرتقي الجابري في الأخلاق الإسلامية من العمل الصالح إلى الإحسان مستأنسا بأعمال العز، الذي يصنف الإحسان أصنافا: الإحسان العام، الإحسان الشرعي والإحسان بإسقاط الحقوق ...

إذا كان العز لم يعرض للسياسة، فقد أتم هذا العمل ابن تيمية، في رسالته الشهيرة (إصلاح الراعي والرعية) لتكمل حلقة الأخلاق الإسلامية القائمة على مبدأ العمل الصالح.

5–آفاق التوجه الأخلاقي الجديد

قام الجابري على طول مؤلفه نقد العقل الأخلاقي العربي الذي يفوق 600 صفحة بغربلة الموروث القيمي في الثقافة العربية الإسلامية، ليعيد ترتيب التراث الأخلاقي، نافضا الغبار عن المنسيين من حملة الفكر الأخلاقي العربي الإسلامي، المحاسبي الذي يحسب خطأ ضمن المتصوفة، والماوردي الذي يعد من الفقهاء، والراغب الأصفهاني الذي يوضع في خانة الأدب واللغة، مع أنهم في الأصل بحاثة في القيم، وقيم المروءة على وجه الخصوص، والعز بن عبد السلام، الذي لم يكن اسمه رائجا غير أنه كان منظرا لأخلاق العمل الصالح، التي يتوجها الإحسان، وابن تيمية كان أمة وحده ومع لم تنل رسالته ما يكفي من البحث والدرس.

هكذا يعتقد الجابري أنه أعاد النظر في العقل الأخلاقي العربي وأثمر نقده، قيما بديلة آن الأوان أن تنافس أو تحل محل القيم السائدة التي ليست سوى أخلاق الطاعة والخضوع والخنوع وما ترتب على ذلك من مصادرة الحريات، قيما جديدة تضع الإنسان في موضعه اللائق بما له من حقوق وما عليه من واجبات، وإذا كان الجابري قد ألمع إلى قيمة الإحسان فقد أعطاها طه عبد الرحمن(1944-...) دورا في منظومته الأخلاقية إذ جعل الإحسان خاصية للجهد الإكتمالي، ذلك الجهد، الذي يرتقي فيه المسلم إلى تفعيل الإيمان بما يضفي على تعامله طابعا من القدسية (طه عبد الرحمن، 2005)

إن آفاق الجابري تصب في السعي إلى تحقيق أخلاق حديثة، معاصرة ولكنها تتميز بخصوصية أرادها الجابري مغربية، وهو ما أثار الكثير من الانتقادات، أبرزها المشروع المضاد الذي جاء به جورج طرابيشي(1939-2016)، إضافة إلى «نقد العقل العربي في الميزان» لصاحبه يحي محمد والذي ينتهي فيه إلى القول «والواقع أن الجابري نفسه لا يخلو هو الآخر

1- العز بن عبد السلام، ولد سنة 577هـ في دكشق وتوفي سنة 660 هـ في مصر، الملقب بـ«عز الدين» و«سلطان العلماء» ة «بائع الملوك». برز في زمن الحروب الصليبية وعاصر الدول الإسلامية المنشقة عن الخلافة العباسية في آخر عهدها. ولعل أبرز نشاطه هو دعوته القوية لمواجهة الغزو المغولي التتري وشحذه لهمم الحكام ليقودوا الحرب على الغزاة، خصوصا قطز قائد جيوش السلطان عز الدين أيبك.

من الجدل والتلاعب في الإحضار والتغييب، بل والتحامل في كتاباته على (...) فلاسفة المشرق. » (يحي محمد، 1997)

6-من أخلاق المروءة إلى الأخلاق التطبيقية

ينحصر النقد الذي يوجه عادة للجابري، في نقطتين أساسيتين:

-**الأولى** أن الجابري استلهم أخلاق المروءة من التراث العربي، وآثرها عن غيرها من القيم، لأنها في اعتقاده القيمة التي ظلت راسخة في الوجدان العربي «إن المروءة قد بقيت تمثل في الفكر العربي، منذ العصر الأموي إلى اليوم، القيمة العليا التي لا تتحقق المدينة الفاضلة العربية بدونها» (محمد عابد الجابري، مصدر سابق، ص510) واختيار الجابري للمروءة بالذات إنما يعود بالدرجة الأولى لشمولها وعمقها وامتدادها في التاريخ إلى ما قبل الإسلام، «المروءة هي ملتقى الأخلاق يتم تحصيلها ببذل الجهد وتحمل المشقة.» (المصدر نفسه ص531) ولهذه الاعتبارات تغدو المروءة قيمة مركزية.

يكتفي الجابري من الإسلام بأن جعله مصدرا لقيمة مثلى هي العمل الصالح، مستشهدا بجهد العز بن عبد السلام كما أسلفنا، وفي ذلك إجحاف في حق مصدر مهم من مصادر القيم، خلافا لما نراه عند مواطنه، طه عبد الرحمن الذي تصدى في كتابه سؤال الأخلاق للكثير من الأطروحات التي تستبعد الدين كملهم للقيم، فالنموذج الغربي الذي أضحى مثلا للكثير من فلاسفتنا، يقف عند حدود العقل المجرد، ولا يرق لى مرتبة الإحسان، ويؤكد على مسلمتين: الأولى هي أن الإنسان كائن أخلاقي أو ما سماه طه عبد الرحمن «الصفة الأخلاقية للإنسان» والثانية «لا أخلاق بغير دين» (طه عبد الرحمن، 2006) ورغم ما توقعه طه عبد الرحمن من معارضة للمسامة الثانية، خاصة من لدن العلمانيين، إلا أنه دافع على مسلمته، من أن حضور الدين في حياتنا الأخلاقية يتم بطريقتين إحداهما مباشرة، وتتعلق بالنص القرآني المشبع بالقيم الأخلاقية المثلى، وبطريق غير مباشر، يتمثل في اقتباس القيم من الدين وإلباسها ثوبا وضعيا.

والحق أن جهود طه عبد الرحمن أخرجت التصور الديني للأخلاق من مجرد وعظ وإرشاد، إلى رحابة النظر العقلي حتى قال أحد الدارسين «لقد بقي مشكل الأخلاق في التداول الإسلامي مجرد مشكل وعظي، تؤديه طائفة معينة، ولم يتحول إلى جدار نظري صلب، يمكن أن يكون بمثابة دخول في فلسفة الأخلاق.» (كريم محمد، موقع حفريات) إلا مع طه عبد الرحمن. فكيف غاب ذلك عن وعي الجابري؟ اللهم إلا إذا بررنا ذلك بالانتماء الإيديولوجي للجابري.

-**الثانية** نقد الجابري يأخذ بعدا جغرافيا، يغلب عليه ما هو مغربي- ولا أقول مغاربي- على ما هو مشرقي مما أثار حفيظة الكثير من النقاد أهمهم المفكر السوري جورج طرابيشي الذي كان من أشد المعجبين بالمشروع النقدي للجابري، ليكشف لاحقا تهافته، بسبب من هذا التقسيم الجغرافي المبتذل في نظره.

تثير هذه الجزئية بالذات نوعا من التناقض، كيف للجابري الذي يعد من أساطين الاتجاه القومي يقع في هذا الاختزال القطري، هل يريد بذلك تحويل مركز ثقل الإبداع الحضاري من المشرق إلى المغرب،؟ وحتى لو كان ذلك هل سيكون على حساب الحقيقة الموضوعية؟

لكن التقصير الذي يطال العقل الأخلاقي العربي هو تجاهله للتطورات التي مست المشكلة الأخلاقية، والمتمثلة في التحول المذهل من الأخلاق النظرية إلى الأخلاق التطبيقية، ومن الأخلاق التقليدية إلى الأخلاق الحديثة والمعاصرة، تلك التي تتعلق بالإجراءات الواقعية ومدى احترامها للاعتبارات الأخلاقية، سواء تعلق الأمر بالحياة العامة أو الخاصة.

لسنا بصدد التأريخ للإيتيقا، ولكن التطورات السريعة - اقتصادية، سياسية، اجتماعية – في العالم، والعالم العربي جزء منه، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، طرحت أسئلة ما كان للعقل الأخلاقي إهمالها أو تجاهلها « منذ ستينيات القرن الماضي حصل تغير جذري في عادات الناس وتقاليدها الخاصة ووقعت تحولات سياسية هائلة (مثل اتساع رقعة الديمقراطية وانتهاء الاستعمار وحركة الحقوق المدنية ...)، قاد الجمهور الفلسفي إلى المطالبة بتبريرات بينة دقيقة، حين يتعلق الأمر بالمبادئ الأخلاقية» (مونيك كانتو سبيربير ورو فين أدجيان، 2008).

لم يكن العرب بمنأى عن التطورات السابقة الذكر، إذ كان طموح المجتمعات العربية بلوغ أقصى ما يمكن من تقدم في كل ميادين الحياة، التعليم، الصحة، التشغيل، التصنيع، ... ومن ثمة فهي معنية بالأسئلة التي تثار في الأخلاق التطبيقية، فكيف لم ينتبه صاحب المشروع إلى هذا الجانب المهم من الأخلاق؟

لعل البعض يقول أن الرجل كان ينبش في التراث العربي الإسلامي، ولا علاقة له بما أفرزته الحضارة الحديثة، ثم أن

طرح هذه المسائل لم ينضج في العالم العربي بحكم تخلفه، والحق أن رجال الفقه والقانون كانوا أنجح في التصدي لهذه الأسئلة، غير أن هذا التصدي لم يخرج عن سياق التحليل والتحريم.

نسجل بكل أسف عدم اهتمام الجابري في سفره البالغ أزيد من 600 صفحة، بهذا الجانب، ولم يميز في عمله بين أخلاق ميتافيزيقية، وبين أخلاق تطبيقية تحاول مرافقة التطور العلمي والتقني والاجتماعي، وعليه فهي تلتصق بحياة الناس اليومية، ما معنى أن يطوف بنا الجابري، وغيره في دروب التراث الملغمة، ولا ينتهي إلى النظر في واقعنا، ولذا غدا من الضروري التفكير في نهاية الأخلاق التقليدية أو ما أصبح يعرف بما بعد الأخلاق وهذه الضرورة «لا تعني إلا انشغالا بالكيفية التي يغدو فيها الكائن حرا من إرادة التشميل والاستبداد وتغريب الجسد.» (عبد العزيز بومسهولي، 2009)

هذا القصور في موقف الجابري دفع بعض الدارسين إلى مؤاخذة المشاريع الفكرية في العالم العربي على نزعتها الشمولية، داعيا إلى ما سماه فارح مسرحي «مثقف ما بعد المشاريع» كبديل لمثقف الأنساق، «هناك مفكرون كثر أنتجوا نصوصا غاية في الأهمية، لكن أغلب النصوص لم يطلع عليها إلا القارئ الأكاديمي المتخصص، لم تجن منها المجتمعات العربية أي فائدة تذكر» (فارح مسرحي، 2018) وبالفعل ماذا جنت المجتمعات العربية على اتساعها من المشاريع الفكرية التي أُنتجت في النصف الثاني من القرن العشرين؟ ألا يتحمل المثقف الموسوعي الذي يكتب في الابستمولوجيا والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ ...، قسطا من المسؤولية على حالة التردي التي يعانيها العالم العربي؟ أليس من الأجدى أن نتجه صوب المثقف المتخصص؟

أعتقد أن طبيعة المرحلة الحالية بما فيها من تحولات متسارعة، تقتضي التوجه صوب التخصص، ومجال القيم أحق بهذا التوجه.

المراجع

1. ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر لبنان، ط1، (المجلد الثالث)
2. حسن حنفي: هل النقد وقف على الحضارة الغربية، في حسن حنفي وآخرون، فلسفة النقد
3. ونقد الفلسفة، أعمال الندوة الفلسفية 15 للجمعية الفلسفية المصرية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2005.
4. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط3، 2006.
5. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، لبنان، ط05، 1985، الجزء 02.
6. طه عبد الرحمن: الحق الإسلامي في الاختلاف، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب ط2005،1.
7. يحي محمد: نقد العقل العربي في الميزان، الانتشار العربي، ط1 ،1997.
8. كريم محمد: السؤال الأخلاقي في فلسفة طه عبد الرحمن، من النظر إلى العمل، موقع حفريات، السؤال الأخلاقي في فلسفة طه عبد الرحمن/ hafryat.com/ar/blog
9. لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001،الجزء 1
10. محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم رفيق لبجم، الجزء 01.
11. محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الازدهار ، دار سينا للنشر، مصر و لانتشار العربي، لبنان، ط1، 2000، الجزء 03
12. مونيك كانتو سبيربير ورو فين أدجيان: الفلسفة الأخلاقية، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2008.
13. عبد العزيز بومسهولي: نهاية الأخلاق أو الانعطاف نحو المبدأ الايتيقي المحايث، دار الحرف للنشر، المغرب، ط1، 2009.
14. فارح مسرحي: المهام الجديدة للمثقف في السياقات العربية الإسلامية، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، ط1، 2018.
15. الفيرز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق أبو نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2007.
16. Le petit larousse , Ed. 2001

Moral Criticism in Arab Contemporary Thought by el-jabri

Abstract

Morality issue in Arab thought was not given the required importance compared to politics, for example, for that reason, Muhammad Abed al-Jabri devoted an important part of his critical project to ethics that he refers to as" the practical reason «in his book The Arab Moral Mind. This research paper is interested in answering some questions related to this concept such as: What is the meaning that Jabri wanted to attribute to the concept of criticism of ethics? What are the implications of this trend? And what is its value

As an attempt to answer the above questions, the aim is to know about the reality of morality related research in contemporary Arab thought, as well as its ability to address current issues from an ethical perspective.

Keywords
Arab thought
morality
ethics

Critique de l'éthique dans la pensée arabe contemporaine par el-jabiri

Résumé

Dans la pensée arabe, la question de la morale n'a pas reçu l'importance requise par rapport à la politique. C'est pourquoi Muhammad Abed al-Jabri a consacré une part importante de son travail critique à l'éthique, qu'il qualifie de « raison pratique » dans son ouvrage « L'esprit moral arabe ». Cette étude vise à répondre à certaines questions liées à ce concept, notamment: quel sens Jabri a-t-il voulu attribuer à la critique de l'éthique ? Quelles sont les implications de cette tendance ? Et quelle est sa valeur? Pour tenter de répondre à ces questions, l'objectif est de comprendre la réalité de la recherche sur la morale dans la pensée arabe contemporaine, ainsi que sa capacité à aborder les questions actuelles sous un angle éthique.

Mots clés
la pensée arabe
la morale
critique
l'éthique

Competing interests
The author(s) declare no competing interests

تضارب المصالح
يعلن المؤلف (المؤلفون) لا تضارب في المصالح

Author copyright and License agreement
Articles published in the Journal of letters and Social Sciences are published under the Creative Commons of the journal›s copyright. All articles are issued under the CC BY NC 4.0 Creative Commons Open Access License).
To see a copy of this license, visit:
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/
This license allows the maximum reuse of open access research materials. Thus, users are free to copy, transmit, distribute and adapt (remix) the contributions published in this journal, even for commercial purposes; Provided that the contributions used are credited to their authors, in accordance with a recognized method of writing references.

© The Author(s) 2023

حقوق المؤلف واذن الترخيص
إن المقالات التي تنشر في المجلة تنشر بموجب المشاع الإبداعي بحقوق النشر التي تملكها مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية. ويتم إصدار كل المقالات بموجب ترخيص الوصول المفتوح المشاع الإبداعي CC BY NC 4.0.
للاطلاع على نسخة من هذا الترخيص، يمكنكم زيارة الموقع الموالي :
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/
إن هذا الترخيص يسمح بإعادة استخدام المواد البحثية المفتوحة الوصول إلى الحد الأقصى. وبالتالي، فإن المعنيين بالاستفادة أحرار في نسخ ونقل وتوزيع وتكييف (إعادة خلط) المساهمات المنشورة في هذه المجلة، وهذا حتى لأغراض تجارية؛ بشرط أن يتم نسب المساهمات المستخدمة من طرفهم إلى مؤلفي هذه المساهمات، وهذا وفقًا لطريقة من الطرق المعترف بها في كتابة المراجع.

© المؤلف (المؤلفون) 2023